المبحث الثاني

صـناعة الغفلـة

obeikandl.com

obeikandl.com

البلادة حين تعم

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «عجبت من جَلَدِ الفاجر وعَجْزِ الثقة»، وقد سجَّل التاريخ هذه الكلمة للفاروق الرجل الملهم الغيور على مصلحة دينه وعلى أبناء أمته، وحفظها طيلة القرون الماضية، كواحدة من ذخائر الفكر الإسلامي التي تصور حالة غريبة من الحالات التي يمر بها العقل المسلم، يكون فيها صاحب المبادئ شخصاً ضعيفاً مسلوب الإرادة، عاجزاً عن المقاومة مستسلماً للتيار، تخور قواه، وتخذله إرادته فتطيش سهامه، ويقرِّرُ الانكفاء على نفسه، والتراجع عن مواقفه إزاء القوة التي يظهرها أصحاب الاتجاه المضاد، أولئك الذين يحاربون المبادئ، ولا يدَّخرون وسعاً في الترويج لمشاريعهم الهدامة، ويحتالون لها بشتى الوسائل والحيل.

ومن اللافت أنهم ينجحون في حين يخفق خصومهم الشرفاء، الذين سرعان ما تتقطع أنفاسهم، وتتكسر عصيهم، ويؤثرون الصمت الطويل كخيار يَحْتَمُون به من أخطار المواجهة مع الخصوم الأقوياء!!

أي حالة غريبة هذه؟ وأي هزيمة يمنى بها المجتمع في رجاله الثقات الذين رضوا من الغنيمة بالإياب، وآثروا راحتهم على مستقبل مجتمع بأكمله كانوا خليقين لو توفرت لهم بعض الشجاعة أن يساهموا في النهوض به وحمايته من تُجِّار العبث واللهو والفكر الرخيص؟

ترى ألا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التخاذل المكشوف من أحق باللوم والتوبيخ؟ هل هم المفلسون من القيم، المغيَّبون عن ذواتهم، الذين ضعفت لديهم الرؤية، وفقدوا القدرة على تحديد الطريق الأجدر بالإنسان الناضج؟ أم هم أولئك الذين عرفوا وتراجعوا عن أدوارهم الحضارية في تعريف الجاهل، والأخذ بيد الحائر، وحماية المجتمع من المتطفلين والأدعياء؟!

إن مما يدمي القلب ويجلب الهم والنكد أن نرى أشخاصا يتمتعون بالكثير من الوعي، والكثير من الخير المخبوء في سرائرهم لكنهم - مع الأسف الشديد- لا يثقون في إمكانياتهم، ولا يطمئنون لقدرتهم على المشاركة في التأثير في الأحداث والمواقف العامة.

وهكذا ينطبق عليهم قول الشاعر العربي الساخر:

ويُقْضَى الأمرُ حين تغيب تيمٌ

ولا يُسْتَأْذنون وهم شهودٌ

لقد تدثر هؤلاء بلحاف الكسل، وركنوا إلى الأحلام والمنى عساها تنوب عنهم في تجسير الصلة ما بين القيم العليا وما بين واقع الناس، وركبوا مركب العجز فأنزلهم أرضاً قاحلة ليس فيها رِيٌّ ولا زَرْعٌ.

تبلَّد في الناس حسُّ الكفاح

ومالوا لكسبٍ وعيشٍ رتيبِ

يكاد يزعـــزع من همـــتي

ســـدور الأمين، وعـــزم المريب

لقد سَدَرَ الأمين وهجع، ومال على أحد شقيه، وعلا شخيره وتدفأ في لحافه الوثير، تاركاً الدنيا خلف ظهره تموج بمن عليها، وتغلي بما فيها، وتقيء أخلاقا رديئة، وسلوكيات فجَّة، وممارسات تعيق المجتمعات عن أداء دورها في البناء وتحقيق الذات، مما أشاع حالة من الخَدَرِ والرغبة في التثاؤب ونشر ثقافة ضحلة، تبشر بمستقبل أغلب أفراده يركضون وراء أغراضهم الخاصة بعيداً عن الانتماء لأهداف هي أجدر بالإنسان.

ترى إلى من نوجه أصابع اللوم وعبارات الاتهام؟ هل للجهلاء الذين فاتهم من المعرفة الكثير؟ أم لفئة من المخلصين الذين وثقنا بهم وخذلونا، ورشحناهم ليمارسوا أدوارهم لكنهم تعثروا أمام أول عقبة، وسقطوا أمام أول اختبار، حتى إذا أتى الذئاب يعوون من كل صوب وجانب وجدوا أصحاب الشياه مشغولين بأنفسهم، فوثبوا على الحمى وتَقَمَّصُوا دور الحارس بعد أن تأكدوا أنه أضعف من أن يدافع عن حقوقه، أو يحمي سواه، فانطبق على الجميع قول الشاعر الذي نظر إلى ما وراء الأفق، وشخص الحال المثير للغضب قائلا:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها

فكيف إذا كان الذئاب لها الرعاة؟

سقف مفتوح للتنمية الموعودة

من القوانين الفعَّالة في إدارة الوقت قانون «باركنسن» القائل بأن العمل يتمدد حسب الوقت المتاح[١] وفي ذلك تأكيد قاطع على أن الإنسان سيِّد قراره، فيما يختصُّ بكيفية تعامله مع مورد الزمن لإنجاز أعماله.

فبإمكان الفرد أن يحدد سقفاً زمنياً قصيراً لمهمة ما ليكسب أكبر احتياطي ممكن من الزمن الذي يملك، وبإمكانه بالمقابل أن يضع سقفاً مفتوحاً لكل مهمة أُوكلت إليه فيهدر الوقت، ويبدده دونما طائل[٢]!!

وشأن الأمم كشأن الأفراد في هذه المسألة، فهي من يحدد جدولاً زمنياً لإنجاز أولوياتها في السلم وأولوياتها في الحروب.

وهي من يختار الوسائل المناسبة لإنجاز الأولويات ويحققها على الوجه الأمثل.

---

(١) دليل التدريب القيادي، الدكتور هشام الطالب، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٢٦هـ- ١٩٩٥م

(٢) الدافعية للإنجاز وعلاقاتها بتوكيد الذات/ د. إبراهيم شوقي عبد الحميد.

www.geocities.com

يُعَد الاجماع على هدف الخطوة الأولى لتحويل الأحلام والرؤى إلى واقع ملموس.

مع غياب الأهداف المشتركة والرؤى الموحَّدة تنخفض إنتاجية الشعوب، وتتدنى اهتماماتها وتقع فريسة سهلة أمام الأفكار الدخيلة والمستوردة، الأمر الذي يفضي إلى تكريس المشاكل وتفاقمها على المدى الطويل.

كما ينفسح المجال للاجتهادات الفردية التي تأتي كردة فعل طبيعية من بعض الشرائح التي تتمرد على السكون، وتثور على الرتابة التي تلون الحياة الاجتماعية باللون الباهت، ويبحث أفرادها عن أدوار نوعية يستثمرون من خلالها مشاعرهم الحيَّة، وقناعاتهم الأصيلة حول أهمية الارتقاء بمستوى المفاهيم والتصورات بما يحقق للأمة قدراً من الفاعلية والتأثير[1].

من أبرز الأمثلة على محاولات التمرُّد على السبات ما يحصل في الأزمات، فالمظاهرات التي تخرج فجأة في مجتمع من المجتمعات، ثم سرعان ما تتلاشى ويخبو صوتها تعكس صورة جديدة من صور التعامل غير التقليدي مع الأزمات القومية، كما تقدم تجربة قصيرة الأمد للخروج من النمطية والرتابة في التعامل مع التحديات التي تواجه الأمة.

---

(١) توكيد الذات/ د. محمد عبدالله الصغير.

www.nafsany.com

إلا أن ما يفقد مثل هذه الرسائل الاجتماعية أثرها المطلوب غياب الدعم المجتمعي الذي تَعَوَّد على المواقف التقليدية في التعامل مع الأزمات، والذي لا يتجاوز التضامن الشفوي المفتقر إلى أي نوع من المصداقية والتأثير.

بالعودة إلى قانون باركنسن الذي ربط ما بين الإنجاز وطبيعة السقف الزمني المحدد له؛ يتأكد لنا أن الويلات التي ألمت بنا تعود إلى الفشل الذريع في التعامل مع الوقت، وإلى الإهدار التاريخي للزمن، الذي بتنا نحصد نتائجه اليوم.

لقد كان هدر الوقت في العقود الماضية مسألة عادية بالنسبة للقائمين على المؤسَّسات الوطنية بشقّيها الرسمي والأهلي. ولم يكن وارداً لدى الأذهان أن التهوين في التعامل مع الزمن سيجلب كل هذه الكوارث التي نعاني منها اليوم، لذلك كان الشعور المتدني بقيمته كمورد مصيري لا يقبل المساومة، ولا أنصاف الحلول مطية الفشل الذي أوصلنا إلى هذا الدرب المسدود.

وإلا فأين هو السقف الزمني الذي وضعته أية دولة عربية لإنجاز أهدافها في التنمية والتطوير؟ وأين هو السقف الزمني الذي وضعته الدول العربية لإرجاع حقوقنا المغتصبة منذ الوعد المشؤوم إلى اللحظة الراهنة؟ أين هو السقف الزمني لإنهاء المشاكل العالقة بين الدول العربية من جهة، وبين دول العالم من جهة ثانية؟ أين هو السقف الزمني لتحويل أماني الوحدة والسوق

العربية المشتركة، وتوحيد العملة والتبادل التجاري الحرّ، وتشجيع الصناعات الوطنية، للانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج والاكتفاء الذاتي؟ ألف سؤال غاضب تثيره هذه القاعدة الإدارية الفائقة الأهمية: «أن العمل يتمدد حسب الوقت المتاح»!

وبما أنه ليس هناك سقف محدد، فالزمن المتاح ربما امتد إلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد فمن يدري؟ لا أحد يستطيع التكهُّن بالغيب لأن إنجاز الأهداف، وتحقيق الآمال معلق بزمن مفتوح، ما يعني أن النهاية أيضاً مفتوحة وقابلة لكل الاحتمالات.

الجهل المقنع

هناك علاقة طردية بين مستوى التفكير وطبيعة الهدف، فكلما ارتقى مستوى التفكير لدى الفرد كلما ارتفعت نسبة التوقعات في إمكانية اختيار أهداف شخصية كبيرة ومثمرة، تتجاوز في أثرها المستويات العادية التي يصل إليها كثير من الأفراد، لتصل إلى مستويات تتضاعف من خلالها الإنجازات، وتكبر معها مساحة النجاحات؟!!

فيما لو تناولنا المصادر التي تشكل ثقافة المرأة العربية اليوم، وقمنا بجولة في خارطة الأفكار التي تستحوذ عليها، والتي تحولت إلى قناعات تدافع عنها بشدة، وترفض التنازل عنها؛ لوجدنا أن رصيدها ضئيل من المفاهيم والأفكار في قضايا مصيرية تتعلق بها كفرد مُنْتَمٍ إلى أمة تنتظر منها أن تخرّج نماذج متميزة من الشباب والفتيات، القادرين على إثراء مجتمعاتهم والنهوض بها، وسوف نقف على رصيد فكري متواضع في هذا الجانب، لن يرقى بها إلى التميز في أداء دورها المنتظر!!

مُخْرَجات الأسر اليوم، والنماذج السلبية التي تجسِّدها فئة من الطلاب والطالبات تشير إلى وجود خلل تربوي في أداء الوالدين، انعكس على شكل ممارسات مرفوضة صدرت من فئة المراهقين والمراهقات.

إصلاح هذا الخلل مسؤولية الأسر، وتحديداً الأمهات اللواتي عليهن تقع مسؤولية تكوين جيل فاعل لديه القدرة على تحقيق ذاته بأرقى الوسائل وأفضل الإمكانات.

المؤسف في الأمر أن مصادر معلومات نسبة مرتفعة من السيّدات لا تتجاوز البرامج التلفزيونية الموجهة للأسرة، والتي تفتقر - في كثير من الأحيان- إلى الإشراف العلمي الدقيق لما تقدمه من معلومات مفبركة، إضافة للمواد المنشورة في المجلات النسائية، والتي لا ترقى لتكون مصادر ثقافية بمعناها الدقيق، مما يكرِّس لضيق الأفق والعجز عن تفهم القواعد الصحيحة لبناء الإنسان الفاعل.

هذه الدائرة المغلقة من المعلومات الناقصة هي أضعف من أن تحصن عقول شريحة الأمهات من الإصابة بـ «فيروس الاكتفاء الذاتي بالمعلومات الناقصة»، وهو فيروس خطير قادر على تخدير عقل المرأة وإرجاعها أميالاً إلى الوراء، فيما يختص بمعرفتها بقواعد السلوك التربوي الفعَّال، بل ويعرضها للاعتقاد بأنها تقوم بدورها التربوي خير قيام!!

إن خطورة الاكتفاء بالمعلومات الناقصة تتمثل في تكريس الأداء السلبي دون إدراك، كما تتواصل الإخفاقات دونما قدرة من المرأة على استيعاب كيفية إشباع الحاجات المتنوعة لأبنائها، تبعاً لاختلاف مراحلهم العمرية.

والسؤال الذي يفرض نفسه: كيف يمكن أن نطالب المرأة بالارتقاء بمستوى أدائها وقبل ذلك بالارتقاء بفكرها رغم أن المجتمع لا يقوم بدوره في تغذيتها بالمعرفة العلمية الصحيحة؟!

الجواب: نعم.. هناك قصور شديد في الأدوار التي يؤديها المجتمع تجاه تفعيل دور المرأة التربوي داخل الأسرة، إلا أن ذلك القصور لا يعني ألا تبذل جهداً خاصاً في التنمية الذاتية، خاصة وأن كل تطور في شخصيتها سينعكس بشكل إيجابي على صحة الأبناء النفسية، وعلى أدائها العام، وهو الهدف الأكبر الذي يجب أن تكرس له المرأة جلّ وقتها، وأن تجعله أحد الأهداف المتجددة التي تقع عليها مسؤولية الوصول إليه.

والضحية... الأبناء

رجوعاً إلى المحور الذي يناقش أثر التفكير في تحديد طبيعة الأهداف، نقف أمام زاوية أخرى من زوايا البحث لنرى أثر جودة الأفكار في سقف الأهداف، وبالتالي في الارتقاء بالأداء إلى المستوى الأفضل.

وبإسقاط هذه القاعدة على نوعين من الأمهات، النوع الأول وضعن سقفاً محدوداً لإنجازاتهن التربوية، والنوع الثاني ارتفع سقف الطموح لديهن، ورأين أن النجاح الحقيقي لدورهن التربوي يتمثل في زرع بذرة الطموح في نفسية الأبناء والبنات، سوف نقف على تفاوتٍ لافتٍ في النتائج المترتبة على تلك الأهداف المتفاوتة القيمة!!

فالأم التي لا تريد لأبنائها إلا الستر، ولا ترغب لهم إلا العيش الآمن المطمئن، ولا تراهم أهلاً لإنجاز الأعمال الكبرى - لأنها تخشى عليهم من تحمل ضريبة تلك الأعمال - لن يحقق أبناؤها الكثير لأنها لم تعطهم إلا القليل.

هذه الأم تصبح وتمسي وليس لها من هدف سوى أن يكبر أبناؤها، وينالوا الشهادة ويعيشوا بقربها مطمئنين، لا يحملون من الأماني إلا أن تصرف عنهم المسؤوليات الكبرى التي آمنوا أنها فوق طاقاتهم، وأن مجرَّد الاقتراب منها يعني المعاناة التي لم

يتربوا على احتمالها وعلى القبول بها كنوع من التحدي لقدراتهم وطاقاتهم الخاصة!!

قطعاً لن تضيف مثل هذه الأم بفهمها القاصر إلى الحياة إلا أشخاصاً محدودي التأثير، وقليلي الإنتاج، وهم في كثير من الأحيان عبء على أمّتهم أكثر من كونهم قادرين على النهوض بواقع تلك الأمة!!

وكيف يمكن لأبناء تربوا عشرين عاماً على أن يكونوا متفرّجين في الحياة، لا يبالون بالأحداث الجسام التي تمر بأمتهم، ولم يناقش معهم أحد إمكانية أن يساهموا في التغيير الإيجابي في الحياة العامة؛ أن يتحولوا بين يوم وليلة من موقف السكون التام إلى مستوى القدرة على المشاركة وصناعة الأحداث؟!!

هذا محال، والتجربة تشهد أن الثمرة اليانعة لكي تكون في متناول اليد تحتاج إلى سنوات من الرعاية الخاصة، كما أن الشواهد العلمية تؤكد صدق ما نذهب إليه.

فالقاعدة الإدارية تقول: "أنت لن تنجز أكثر مما خططت له، فخطط على المدى الأكبر ليكون إنجازك كبيرا".

والقاعدة النفسية تقول: الناس يأخذونك على حسب تقييمك لنفسك.

بينما تطرح التربية قاعدتها التالية: حتى تصنع العظماء ربِّهمْ منذ الصغر على أنهم خلقوا للعظائم.

أما القاعدة الاجتماعية فتقول: فاقد الشيء لا يعطيه.

كما تؤكد القواعد العملية في الحياة أن الأعمال الكبرى لا يقدر على الإتيان بها إلا من ارتفع لديهم سقف توقعاتهم لقدراتهم الذاتية!!

محصلة ذلك كلِّه هو أن التميز التربوي لا تصنعه أهداف تربوية محدودة، ولا يُؤسّس له منهج صاغه الأفق الضيق!!

المؤلم حقاً أن هذا التفكير النمطي له قاعدته الجماهيرية العريضة، والسبب فقر البيئة المعرفية، وفقر الموارد العلمية الذاتية، وانتشار النمط المعيشي السلبي الذي يبحث عن المتعة في اللهو والتسلية، ويرفض مجرّد التفكير بأن ثمة متعة في قبول التحديات والأعمال الكبرى.

فالسعادة في أغلب هذه الأنماط المعيشية السائدة هي في الحصول على دخول مرتفعة مقابل القليل من الجهد.

الأمر الذي يكرِّس فكرة الرغبة في الهروب من المسؤوليات، ويفتح المجال واسعاً أمام المزيد من الهاربين عن تحمل الأدوار النوعية في الحياة.

لنا بعد كل هذا أن نرسم صوراً ذهنية مخجلة لحال المجتمعات التي يُرَبَّى أبناؤها على الهروب إلى الصفوف الخلفية فَرَقَاً من تحمل مسؤولياتهم الكبرى!!ولنا كذلك أن نزداد قناعة بأن صناعة العظماء تبدأ من البيوت وليس من أي مكان آخر[1]!!

(١) للتوسع في موضوع التميُّز التربوي اقرأ: عشر قواعد في التميُّز الأسري.
http://mawada20.tripod.com

obeikandl.com

المفوَّهون من أمتنا

ماذا لو حاولنا إحصاء عدد الندوات والمؤتمرات واللقاءات العلمية التي جمعت بين أقطاب الفكر والرأي وأهل الاختصاص في المجالات العلمية المختلفة للتداول حول مشاريع التنمية الشاملة في العالم العربي، ثم نظرنا إلى التوصيات التي تمخضت عن تلك اللقاءات، وناقشنا بهدوء وعقلانية وسعة صدر النتائج التي ترتبت على تلك التوصيات أيها خرج إلى النور وأيها لم يحظ بأي نوع من الاهتمام؟

الشيء الذي يُؤْسَف له هو أن مئات بل آلاف الندوات واللقاءات الفكرية لم تستطع أن تحقق من أهدافها إلا نسبة ضئيلة، لا يمكن التعويل عليها لإحداث التغيير المطلوب، بل إن أغلب تلك الندوات أخذت طابعاً شكلياً، واكتفى أعضاؤها بالمشاركة المجرَّدة نائين بأنفسهم عن تحمِّل تبعات ما بعد المشاركة، حتى تخرج التوصيات التي تُليت في المحافل العلمية إلى النور، بل لقد حدث أسوأ من ذلك حين تحولت الوسائل إلى غايات في نظر بعض العناصر المشاركة بحضور مثل هذه البرامج.

ما يزيد الطين بلة اعتقاد فئة من المشاركين بحضور هذه المحافل في إمكانية حدوث تطور في الواقع بناء على التوصيات

المدرجة في نهاية أعمال هذا المؤتمر أو ذاك رغم أن استقراء الأحداث يؤكد أن النصائح والتوجيهات المنبثقة من أعمال هذه المؤتمرات تعرف طريقها للنوم في الأدراج ولا تتحول لمشاريع تنفذ على الأرض!!

السؤال المهم الذي يعترض البحث: كيف يمكن التعويل على مثل هذه اللقاءات والمنتديات وكيف يمكن الركون إليها واعتبارها إنجازاً يمنح أعضاءه شهادة اعتراف بجدارتهم لقيادة مجتمعاتهم، وأهليتهم للنهوض بتبعات مرحلة البناء والنمو الشامل، رغم اقتناع بعضهم بأن المشاركة في الندوات الفكرية تحميهم من أية التزامات أخرى نحو مجتمعاتهم؟.

والسؤال الآخر: هل يستطيع التنظير وحده أن يحقق نتائج بارزة في الواقع المنظور دون أن تكون هناك برامج عمل تتزامن مع هذا التنظير وتُجَسِّر الصلة ما بين المثال والواقع، وتُمَهِّد لممارسات أكثر قدرة على اختصار المسافة ما بين الأهداف ونقطة البداية التي لم تتخطاها العديد من المشاريع التنموية بعد؟!

ألا تدل مثل هذه القناعات الضعيفة على اشتراك هؤلاء المثقفين - الذين يتبنون الدفاع عن مواقفهم الخاصة بغض النظر عن النتائج العلمية التي تحققها قناعاتهم - مع سواهم ممن يقدمون القليل ويرون أنهم قد اعذروا ولم يعد بأيديهم تقديم المزيد؟!

ألا يتشابه الركود الذي تعاني منه المحافل العلمية مع ما تتناقله الصحف وتتناوله الأقلام بالنقد المباشر والصريح للقرارات الفوقية التي لا تترك أي صدى على الأرض، وللتوصيات الصادرة من الأعلى الفاقدة للقدرة على تحريك المياه الراكدة في الواقع السياسي والثقافي الذي يعاني من أزمات لم تَعُدْ خافية على أحد؟

إن ذمة المفكر والعالم لا تبرأ بمجرد حضور المحافل الدولية، ولا يمتلك أي مشارك مهما كان وزنه العلمي حصانة ترفعه فوق مستوى المسؤولية الفردية في المساهمة الواسعة لتغيير الواقع السلبي[1].

(١) للوقوف على تفاصيل الخارطة السلوكية لأبناء المجتمعات الإسلامية اقرأ على شبكة الانترنت مقال: الضغط على الأزرار للكاتب عبد الجليل النذير الكاروري.
www.alnilin.com

أمَّةٌ سلاحها الصوت

حين يقال عن العرب: أنهم أصبحوا أمة صوتية، تبدع في الكلام، ولا تجيد العمل؛ تجد هناك من يتململ، ويشيح بوجهه، ويضيق ذرعاً بهذا الحكم الذي يعده جائراً، ويراه أبعد ما يكون عن الصواب!

ولو سألت هذا المؤمن بعافية الأمة ونجاتها من الضعف عن الأدلة والبراهين التي يملكها على صواب حُكْمِه، فإنه سيحتار في إعطائك أدلة دامغة على حيوية الشعوب في مجال العمل الجاد المنطلق نحو المستقبل بخطوات مدروسة ومنظمة!!

إن الواقع ـ مع الأسف البالغ ـ يؤكد المقولة السائدة بأن العرب غدوا ظاهرة صوتية، فهو يعبر عن الهوَّة البعيدة بين الأقوال وبين الأفعال، كما أنه يعكس حالة من اللجوء إلى الهروب، والإعراض عن صوت الواجب الذي ينادي ويلح في النداء!! فلو فتحنا على سبيل المثال ملف العلاقة بين الشعوب، والقضية المحورية التي يقوم عليها جوهر الصراع في المنطقة، لوجدنا أن الظاهرة الصوتية هي الوصف الأكثر قدرة على الدلالة على الكيفية التي تعبر بها الأمة اليوم عن انتمائها وعاطفتها لفلسطين.

من أوضح الأمثلة على هذا القول، المظاهرات التي أَلِفْنَا خروجها بعد كل تصعيد في العنف يقوم به الصهاينة، والتي ليست

سوى عملية تنفيس عن شعور بالغضب العارم تجاه ظلم الإخوة في فلسطين، والذي سرعان ما تخف وتيرته ويهدأ هديره بعد الفراغ من المشاركة في هذا العمل الجماهيري الصاخب!!

ولأن سلاح الصوت سلاح مؤقت فإن عودة الهدوء إلى الشارع العربي كان أمراً متوقعاً.

غير أن السؤال، هل كان ذلك السلاح الصوتي هو آخر سهم في كنانة الملايين الذين رموا به أعداء فلسطين؟ الجواب حتماً لا، فلقد حرّكت تلك الشعوب عاطفة مازالت «حاضرة» في قلوب الكثيرين، غير أن ما ينقص هذه العاطفة هو اكتفاؤها - في أحيان كثيرة - بأقل قدر من مساحة التعبير على أرض الواقع، مع اختيارها للوسائل المحدودة الأثر، والتي تعتمد على أسلوب التنفيس عن الانفعال أكثر من اعتمادها على الأساليب التضامنية ذات الأثر البعيد، الطويلة المدى، والمدروسة الخطوات.

هذا القدْر من القناعة باليسير من الجهد لصالح القضايا القومية يتجلى في العديد من اختيارات الحياة، وفي الكثير من التصرفات التي تنم عن خذلان واضح، وتجاهل شديد لصوت الواجب الذي يلحُّ في كل ظرف وحين.

فأنت ترى أن هذه العاطفة تختبىء وتتوارى حين يستدعي الظرف الإعلان عن وجودها، والإصغاء لصوتها ومطالبها، وتكاد

تصل لمرحلة الضعف أو الأفول حين يتعلق الأمر بموقف يؤكد مكانة القضية في قلوب الناس.

الشواهد والأمثلة كثيرة على تراجع العاطفة الفاعلة من القلوب.. ومناسباتنا الاجتماعية فيها غنى وبيان.

التحضير لحفلة زفاف على سبيل المثال بات مناسبة للتباهي بالمظاهر وإظهار التَّرف بصورة تعكس حجم اللامبالاة بالأموال المهدرة، رغم أنه كان بالإمكان اقتطاع جزء منها لصالح القضية الكبرى التي تشغل المسلمين.

المكابرة والإصرار على السير حتى نهاية الطريق في مجاراة المناخ الاجتماعي تظهر فيما لو تجرأ أحد المخلصين وتساءل عن سبب كل هذا البذخ، رغم معاناة الأمة وهمومها المتراكمة، وقد لا يحظى السائل بأكثر من التهكم عليه ووصمه بالبخل أو الحسد والضغينة.

السفارة الفاشلة

مثال آخر قد يساهم في التأكيد على أن الأمة اليوم فرَّطت في أدوارها، يصلنا من مواسم السفر التي تستقطب أعداداً من المسافرين، ممن لا يحسنون الوفاء بالتزاماتهم في الأماكن التي يقصدونها.

ورغم أن هذا الهدف جيد بحد ذاته، ومقبول من حيث الفوائد السريعة التي يجلبها للمسافرين، مثل تجديد الطاقة، وتوثيق الروابط الأسرية، والتعرف على مناطق سياحية جديدة في هذا العالم المترامي الأطراف. إلا أن ثمة سؤال يتبادر إلى الخاطر وهو: لماذا لا يضاف إلى هذا الهدف الترويحي هدف آخر يتمثل في تقديم الشخصية العربية المسلمة إلى دول العالم بطريقة لائقة، تؤكد أن إنسان هذه الأرض الطيِّبة يحمل القيم الحضارية القادرة على جلب احترام الآخرين له، وبهذا يصبح السائح المسلم سفيراً فوق العادة للأمة التي ينتمي إليها؟

أمَا وقد اختلط الأمر على البعض إلى الدرجة التي أصبحوا بها مصدِّرين لسلوكيات يترفعون عن القيام بها خارج أوطانهم، فذلك دليل على اضطراب الشخصية وحاجتها الملحة لإصلاح عيوبها التي انكشفت في السفر وظهرت بكل جلاء[١].

(١) للاستزادة: الثقافة الغائبة / رجب سعد السيد.

www.arabworldbooks.com

الفهم المعكوس لمعنى الترويح والسياحة وللأهداف والمقاصد المرتبطة بفوائد السفر والاستجمام يُعدُّ دليلاً إضافياً على الانفصام النكِد ما بين الشعارات والأفعال، وما بين الادعاء والواقع.

إذا انتقلنا إلى صورة أخرى من صور الحياة الاجتماعية وأخذنا الانترنت كوسيلة عصرية استقطبت نسبة عالية من الرجال والنساء، فإن طريقة الاستخدام كرَّستْ من جديد حالة اللامبالاة والإعراض عن استثمار هذا المنتج الثقافي الإعلامي المفتوح، فيما يعود على واقع هذه الأمة، ومستقبلها.

عدد كبير من مستخدمي هذه الواسطة الإعلامية المتطورة عكفوا على ابتكار أساليب تنم عن جهل شديد بأهداف صناعة هذا المنتج الخطير، وتكشف عن ثقافتهم الهشة التي قادتهم للهو واللعب بأداة يمكن أن تُسَخَّر لنشر الثقافة الإسلامية والتعريف بالهوية لدى شعوب العالم.

من الصور الأخرى التي تجسد حالة التفرج على الواقع، دون أن يكون لدى الإنسان أدنى استعداد للمشاركة في تفعيل دوره في الحياة تلك اللغة التحبيطية التي انتشرت بين فئات المجتمع وبات يردِّدُها الكبار والصغار دون التفكر في عاقبة الاستسلام للأفكار الواهية التي تنم عن فقدان الدافعية للعمل، ناهيك عن كونها تفتقر إلى الإيمان بإمكانية إصلاح الخلل.

والعبارات الشائعة على ألسنة العامة اليوم: «ما باليد حيلة»، أو «ليس لدينا أفكار جديدة أو مفيدة للآخرين»، أو استنساخ مثل هذا الرد غير المجدي «لست معنياً بمشاكل غيري، يكفيني ما أنا فيه»، أو مثل هذا العذر «لا أجد وقتاً لأعطيه غيري»، أو إعلان الاعتذار بصوت مسموع «لست المتسبب في مشاكل العالم حتى أُكلَّف بعلاجها»!!

هذه الكلمات المتماوتة التي يرددها ذوي العقول المستريحة هي إعلان عام بأفول همم كان من الأحرى أن يقاوم أصحابها كي لا يستسلموا للطوفان، وكان خليقاً بهم وهم المنتسبون للإسلام أن يستلهموا من هذا الدين أن النهاية دائماً للأصلح، وليس للأقوى المتجرِّد من الضمير والأخلاق!!

إن بيننا وبين الصورة اللائقة التي ينبغي أن يظهر عليها المسلمون بوناً بعيداً، وعليه فالواجب نقد الذات، وتفقد المخزون الجماهيري من الوعي عسانا نُبْرِئُ ذمتنا أمام الخالق عز وجل.

آرمسترونج

العلاقة بين الجهل والخرافة تتميز بالقوة والتلاحم، فالجهل يمهِّد للخرافة ويوفر لها الدعم الكافي لتهيمن على عقول الناس، وتحولهم في الاتجاه الذي تريد دون أن يتوفر لمن تستهدفهم القدرة على نقد ما بها من أفكار، أو الحكم عليها بما يقتضيه العقل والمنطق.

حين يختفي العلم أو يتراجع في أي بيئة اجتماعية تسود الاعتقادات الخاطئة التي تثب على العقول المفتقرة لمعايير دقيقة تحتكم إليها في شؤونها العامة والخاصة، وتحول بينها وبين الخرافة.

يقدِّم عالمنا الإسلامي شواهد تؤكد أننا كغيرنا من الأمم نحتاج لنرتقي بأدوات تفكيرنا إلى المستوى الذي يؤهلنا لرفض الخرافة، ونبذها من الأفق الاجتماعي.

من أشهر المواقف التي أخطأ فيها العقل، وأسلم قياده للأخبار التي لم تخضع للنقد والتمحيص تلك القصة الشهيرة التي ترددت على أفواه الملايين بعد رحلة آرمسترونج رائد الفضاء الشهير إلى القمر، حيث انتشرت حكاية غريبة عن تلك الرحلة نشرتها بالتفصيل مجلة العربي في مقالة حملها العدد ٤١٧

بعنوان: "الرقابة في مواجهة الطوفان"، للكاتب شوقي رافع، يقول فيها: إن هناك رواية عن رائد الفضاء الأمريكي نيل آرمسترونج الذي كان يسير في شوارع القاهرة، فسمع صوت المؤذن، وسأل مرافقه: ما هذا الصوت؟ فقيل له: إنه أذان المسلمين؛ فقال الرائد: ولكنه الصوت نفسه الذي سمعته وأنا أسير فوق سطح القمر، ثم أشهر الرائد إسلامه! والرواية انتشرت بين المسلمين، وتحمسوا لها، وأصل فريتها يقع على عاتق مجلة ماليزية نقلت عنها مجلة عربية، اتصل رئيس تحريرها بالكاتب ليجري حواراً مع آرمسترونج حول الموضوع، وكان الرائد مشغولاً، فطلب إرسال الأسئلة إليه ليجيب عنها؛ فوضع الكاتب أكثر من ثلاثين سؤالاً، أحدها عن علاقته بزوجته بعد إشهار إسلامه، وإن كان يفكر في الإقامة بمصر!! وبعد يومين أتى الرد في اثني عشر سطرًا يشكر الرائد فيها الكاتب، ويقول: إن الأسئلة لا تقوم على أساس! وقصة إسلامه مخترعة تماماً، وأنه لم يعتنق الإسلام ولم يسمع الأذان أو أي صوت آخر على القمر، ولم يزر مصر في حياته، ويعتذر عن إزعاجات الصحافة التي تفتقر إلى المصداقية!

وأخذ كاتب العربي رد آرمسترونج ليُنشَر في الصحيفة التي أعلنت إسلامه، فاعتذروا بعد قرار هيئة التحرير! وكانت الخلاصة ما يلي: قالوا للكاتب: يا أستاذ، لو نشرنا الرد لقامت علينا القيامة، وسيعتبر الكثيرون أننا رددناه عن إسلامه! وبقي آرمسترونج مسلمًا! "

هذه الحكاية التي ساقتها مجلة العربي هي واحدة من عشرات الحكايات الوهمية التي يتقبّلها العامة بكل ترحاب، ويتحمسون لترويجها معتقدين أن إقحام الدين في ثنايا القصة هو إشارة حاسمة على أهمية الحكاية وعميق مغزاها.

الإصرار على ترويج قصص خيالية تستثير المشاعر الدينية يؤكد أن ثمة فراغ فكري خطير يهدد البنية التصورية لأفراد المجتمع، ويعيد صياغة الأمزجة تبعاً لأهداف القصة الخيالية التي تتحول بين يوم وليلة إلى أسطورة محببة، وسيرة جذابة تهفو إليها النفوس وتتقبّلها الضمائر.

ميزان المعرفة المجهول، والمعايير العلمية الدقيقة في قبول الأفكار ونقدها المغيّبة عن العامة هي الأدوات المنهجية التي يفتقر إليها من يخلطون بين الخرافة والدين، وينتهزون كل حكاية مختلقة لتحويلها إلى عقيدة لا تقبل الشك ولا تحتمل النقاش والنقد.

تلك العقائد النابعة من الوهم والتلفيق هي أحد عوامل إلهاء الأمة عن واجباتها الكبرى لصالح الاعتماد على الخرافة لحل المشاكل ولإعادة الهيبة المفقودة.

ترى هل خطر ببال من وثقوا بالرواية التي تبرأ منها آرمسترونج بأن سماعه لصوت الأذان على سطح القمر سيعيد إلينا عزنا المفقود وهيبتنا الضائعة؟

هل تنفع مثل هذه الروايات التي تنسب زوراً إلى بعض المشاهير لتقنع الآخرين بجوهر الدين الذي ننتمي إليه؟

وفي المقابل ألا تمثل مثل هذه الحكايات وسيلة تخديرية لممارسة المزيد من التثاؤب التاريخي الذي لدينا منه الكثير؟!!

أليس الاتكاء على الوهم يبعد الأمم عن التقدم إلى الأمام ويحرمها من مصادر المعرفة الصحيحة؟

والسؤال الأخير كم في جعبة مروجي الأساطير من حكايا بدؤوا في نسج خيوطها الأولى ولما تكتمل بعد؟!!

ثورة على المألوف

«الإبداع يحل أي مشكلة، العمل المبدع والانتصار على العادة الموروثة يتخطيان كل الحواجز».

جورج لويس[١]

ترى هل يمكننا أن نجادل في جدارة هذه الفكرة بالاحترام والقبول، وهي التي أثبتت فاعليتها بالدليل والبرهان، وهيأت للنماذج المتميزة من السبَّاقين ممن تحرروا من أسر العادة، ورفضوا النمطية وتكرار المألوف، وتمردوا على ما هو سائد فأبوا أن تُكَبِّلَهم أصفاد الوهم أو أغلال الحياة؟!!

لاشك أن باب الجدل مفتوح على مصراعيه لهواة الثرثرة، وأساطين البحث عن المشاكل، أولئك الذين ما فتئوا ينظّرون منذ عصور ما قبل التاريخ وإلى اليوم حول جدوى الاعتراف بالقصور والعجز أمام التحديات الصعبة، لإراحة النفس من مغالبة القدر إذا ما وجد الفرد أن حجم التحدي القائم أكبر من حجمه وطاقته!!

---

(١) مرّن عضلات مخك (١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م) طارق محمد السويدان، الإبداع الخليجي، الكويت.

والصحيح أن أسر العادة الموروثة هو أسر فكري قبل أن يكون أسراً مادياً يصادر من الإنسان بعض حقوقه، ويسلبه بعضاً من الامتيازات التي لديه.

فالأسر الحقيقي هو أسر الفكر من أن ينطلق إلى الحدود القصوى باحثاً عن حلول جديدة، مؤمناً بأن الثقة بالذات هي مادة علاج المشاكل معالجة المشكلة وتطويقها قبل أن تستفحل.

كما أن هذه المرونة الفكرية، والقرار بإعطاء الضوء الأخضر للخيال ليسلك مسارات عدة باحثاً عن فكرة جديدة تنقذ الفرد من واقعه الصعب هو الحلقة المفقودة في العلاقة بين الفرد وعقله.

وكم أودى الانكفاء الفكري بأصحابه، وكم جنى عليهم قبل أن يهزمهم طرف خارجي يملك القوة والسلطة؟

إن التبعية العمياء لما هو كائن ومتبع هي المسؤولة عن تكريس ردود الأفعال السلبية التي تحبس أنفاس أصحابها فَرَقاً من مواجهة المشكلة، وتدفعهم للاستسلام رافعين راية الرضا بالقضاء والقدر كآية على الإيمان، بل وربما قادتهم السذاجة إلى القول بأن الإسلام يأمرهم بهذا الخنوع والتخلي عن مقاومة الأزمة، والاجتهاد للنجاح في اجتيازها بأقل قدر من الخسائر الممكنة!!

وقد فات هؤلاء المتشبثين بظواهر النصوص دون أن يكدوا العقل في فهم مقاصدها أن الهدف من المطالبة بالرضا بالقضاء

والقدر هو في حدّ ذاته دعوة إلى الصمود، وإقرار بقدرة الإنسان على السيطرة على نفسه إزاء المحنة.

وعليه فإن الدعوة إلى الرضا بالقضاء والقدر ليست رسالة للخنوع وإحناء الرأس للعاصفة، بل على العكس من ذلك إذ تطالب بالثبات وقت الأزمة، وتدعو إلى حسن التصرف حين التعرض للحدث المؤلم، وهو ما اعترف به العلم الحديث وأطلق عليه اسم «العلاج السلوكي»، كخطوة أولى من الخطوات الحازمة في إدارة الأزمة، والسيطرة على الأمور.

والأمر بالرضا بالقضاء والقدر تحريض على قراءة الواقع الجديد قراءة متأنية، ودراسته وفْق المعطيات الطارئة وغير السارة لحظة حدوثها، حتى يتمكن الفرد من الوصول إلى حلول جذرية تعيد اتصاله بالعالم الخارجي، ويتحول بالممارسات الذكية إلى حدث سعيد فيما لو كان الفرد متمكِّناً من ممارسة وظائف التفكير الحُرِّ الرافض للهزيمة مهما كان نوع التحدي الجديد.

هذه الانطلاقة غير المسبوقة في صناعة الحياة الكريمة من خلال البحث عن غير المألوف من الأفكار هو ما ينقصنا اليوم كأفراد وجماعات. فكم من مشاكل بسيطة غاب عنها الفكر التحليلي الباحث عن مخارج جديدة لتطويق الأوضاع الحرجة قبل أن تستفحل، تحولت مع تسرِّب الوقت إلى مشاكل مزمنة تستعصي على العلاج[1].

---

(١) للتدريب على استخدام أفضل لقدرات العقل، اقرأ: برامج العقل العليا/ د. حسن سفنجة. www.nlp.illafsoft.com

تفعيل الذات المسلمة

تفعيل الذات المسلمة هو الهدف الأهم الذي يجب أن يكون قبلة الكتّاب والمفكرين والمسيّسين للحركة الثقافية، أفراداً كانوا أو مجتمعين[١].

وشحذ ذهن المتلقي قارئاً كان أو سامعاً أو مشاهداً هو الخيار الذي يطل برأسه حاملاً معه ألف مبرر لاختياره مشروعَ إنقاذٍ لعقولِ أفرادِ المجتمع، وتحويلها من موقع التفرج على الأحداث إلى موقع صناعة الحدث والدخول المباشر في معترك الحياة العملية.

وثمة رصيد حي من المفاهيم الحضارية والقيم العليا والمعرفة المبصرة بكيفية تفعيل الأداء وتوجيهه الوجهة الصحيحة.

هذا الخيار الذي نسميه مشروع إنقاذ لا زال في مراحله الأولى ولم يصل بعد إلى أن يكون خياراً شخصياً لكل فرد على النحو الذي يتأمله الغيورون على مستقبل الأمة.

---

(١) موضوع تفعيل الذات هو أحد المواضيع التي أخذت حيزاً لا باس به في الفكر الغربي المعاصر، بينما هي في العالم العربي ما زالت حبيسة كليات التربية وأقسام علم النفس، الأمر الذي نتج عنه نشوء مفاهيم خاطئة لدى فئة من أفراد المجتمع، للمزيد اقرأ:

- أمور ضارة بهدف تحقيق الذات و أخرى مفيدة

www.balagh.com

فيما لو استثنينا دائرة الإعلام المرئي الذي غدا آخر من يعنيهم مثل هذا الأمر، وأجّلنا الحديث عن الإعلام المكتوب الذي لا زال مغرما بالسياسة أكثر من غرامه بأي شيء آخر، مما افقده القدرة على التوازن في عرض الموضوعات الجوهرية الأخرى، وتحديداً قضايا الفكر والثقافة والعلوم الاجتماعية والتربوية والنفسية، فإن ما يتبقى لنا من قنوات توجيه يمكن أن ننظر إلى جدراتها بأن تقبل النقاش وتدخل فيه بوجه من الوجوه هم طبقة الكتّاب والمفكّرين الذين لا زالوا يمتلكون إلى حد كبير مساحة من الحرية في اختيار الموضوعات التي يطرقونها.

وغير خاف على القارئ النابه أن من يدخل في هذه الدائرة هم أهل الثقة من الكتّاب العدول الذين تحركهم الغيرة على أمتهم، وتغذيهم مشاعر إيجابية لخدمة الحقيقة ولا شيء غيرها.

هؤلاء الكتّاب الذين تجمعهم حسن النية، وتوحّد بينهم رغبة عميقة للحاق بالأمم المتحضرة والنجاة من مصائد الجهل وفخاخه الكبيرة، لم يكن أداؤهم - مع الأسف الشديد - على قدر نواياهم الحسنة وحبّهم العميق لأمتهم.

وإن كان الحظ قد أسعفنا بقمم فكرية أدت ما عليها وأجادت حتى كادت أن تبلغ الذروة في العطاء فإن ذلك لم يكن حظنا كذلك مع بقية المخلصين ممن دخلوا في زمرة الكتّاب، أو المحاضرين الذين لم يعرفوا أن تفعيل الفرد يأتي في المقام الأول[1].

(١) للوقوف على مفاتيح القيادة والتأثير اقرأ كتاب: كيف تسيطر على الآخرين، للكاتب بيرتون كابلان (٢٠٠١م) مكتبة جرير، السعودية.

والتفعيل هنا لا يأتي عبر الجرح والإساءة، ولا عن طريق الذم والنقد الجارح، كما أن سبيله ليس بتعميم الأخطاء والإشارة بأصابع الاتهام إلى السواد الأعظم من أفراد المجتمع.

لم يكن المستفيد من إشعال حرائق كلامية أو كتابة سطور ديناميتية شديدة التأثير إلا العدو نفسه، الذي يطربه العبث بقواعد النجاح، ويهمه رؤية الأوراق وهي تختلط ببعضها على يد ثلة ليس لديها ما يحميها من اعتماد أي منهج في التفكير شرقياً كان أم غربياً، وقد أصبحت لقمة سائغة لكل من يريد العبث بها والنظر إليها، وهي تتخبط في اختياراتها وتتلعثم في منطقها، فتُعجبُ بما لا يستحق الإعجاب، وتُولَع بما حقه الطرد والإبعاد.

كان من المنتظر إزاء هذه المعطيات أن يتصدى أهل الخبرة والاختصاص فيعيدوا تقديم المعلومة مصحّحة إلى الناس، ويقوموا بأدوارهم العلاجية في سدِّ الثغرات القاتلة في المفاهيم والتصورات، وإجراء عمليات ترميم لكل ما يقبل الترميم ويحتمل جهود الإصلاح والتعديل لتنجح شفاعتهم، وتحظى وساطتهم بالقبول بعد أن نذروا أقلامهم لخدمة الحقيقة، ومعالجة التصدع في القيم والمفاهيم.

لكن يظل الجهل سيّد الموقف، والجهل هنا ليس بالمعلومات المقدمة التي لها كُتّابها المميزون وأهلها المؤتمنون وإنما هو جهل بأبجديات النهوض، وغفلة عن المفاتيح المناسبة لتوصيل المفاهيم المطلوبة إلى المتلقي!!

من المعروف أن جودة الخطاب، والدخول الحسن في الموضوع يمهّد لقبول الرسالة المقصودة، ويحفّز لتأمله وبذل جهد كاف لفهمه وتحليله،فإذا ما أنجز المتحدث هذه الغاية وشعر أن الآذان له مصغية دخل في صلب الموضوع وقدم عرضاً تحليلياً لمادة خطابه، مراعياً أن تشكل إضافة حقيقية لجمهوره الذي منحوه الوقت، وأقبلوا عليه بجوارحهم يستمعون إلى بضاعته.

فهل مستوى البضاعة الفكرية المعروضة للجماهير تتوفر فيها هذه الشروط؟ أم أنه في أحيان عدة لا يكون هناك فرق يذكر بين ما لدى المستمع (المتعلم) والمتحدث (المعلم)، مما يعني أن كلا الطرفين بحاجة إلى من ينقلهما خطوات إلى الأمام؟!!